ذكرى (*)

﴿ للسوريين عامة . واهل بيروت خاصة ﴾

البلاد السورية من ارقى البلاد العثمانية استعداداً في العلم والعمران وان بيروت ارقى هذه البلاد ، بل هي من اثمن الدرر في تاج آل عثمان

قد زادت قيمة بيروت في نفوسنا بعد الدستور اضعافا مضاعفة ، ومصرنا نباهي بها ونفاخر بعد ان كنا نشكو من تلك المرة الفاضحة : مرة العصبية الجاهلية باسم الدين التي كانت حجابا دون محاسنها الكثيرة ، ومزاياها الجمة ، فقد كانت تتلفع بذلك الثوب المنكر وتدجج بسلاح البغي والعدوان فكلما سمعت هيعة جردت سلاحها هذا ، وقالت به هكذا وهكذا ، تتوهم انها تجاهد في سبيل الله وتقتل عدو الله ، وانما كانت تجاهد في غير عدو ، بل كانت تحارب نفسها وهي لا تدري ، فيطعن بعض ابنائها صدور الابناء الآخرين وهو لا يرى ولا يبصر ، حتى اذا لاح صبح الدستور القى الاخوة السلاح من ايديهم وعلق بعضهم بعانق الآخر ويقبله وهو يبكي على ما فرط في ذلك الليل البهيم ، ويبسم لما يرجو في هذا النهار المنير

كان بعض عقلائنا يقولون ان علة تلك الاحقاد والاحن هي الحكومة الاستبدادية التي لا تجد حفاظا لسلطتها الا التفريق بين رعيتها ، ولا سيما أهل الذكاء والعلم منهم ، وكان بعضهم يقول ان علة ذلك التدابر والتباغض هي دسائس اصحاب المطامع من الاوربيين ، وهنالك فريق ثالث يجمع بين القولين ، ويثبت كلتا العلتين ، ولا خير لبيروت ولا لما يجاورها من البلاد في فوز هاتين السياستين . وانما خيرها في اتحاد ابنائها على ترقيتها وعمرانها ورفعة شأنها وكل من السياستين عقبة كؤد في طريق سعادتها هذه

(*) نشرناها في جريدة الحضارة التي تصدر بالآستانة

فرحنا بعد اعلان الدستور من خلع بيروت ذلك الثوب الذي كانت تتلفع به احيانا في تلك الظلمات ونبذ ذلك السلاح الخاطل الذي كانت تعرّ به مفاصل اعضائها فنين بعضها من بعض ، واشبعناها ثناء وتقريظا ، واريناها حمدا وشكرا ، راجين ان يكون الشكر مدعاة المزيد ، وذلك اثر الشكر الطبيعي في نفوس أهل النجدة وعلو الهمة كأهل بيروت

تلك الحمدة التي عكس لنا البريد صوتها وارانا البرق نورها ونحن في مصر قد هاجت شوقنا لرؤية بلادنا ترفل في حللها الزاهية ، في نور شمس الدستور الضاحية . بعد ان تركناها منذ سنين دخلت في جمع الكثرة وهي تتعثر في ذلك الثوب الخلق ، في ذلك الطريق الذي في مثله يقول الراجز

وقاتم الاعماق خاوي المخترق مشتبه الاعلام لمّاع الخفق

تسير على غير الهدى ، الى حيث تقع في مهاوي الردى ، في تلك الحنادس ، بما يخفق من بروق الوساوس ، التي تغريها باعانة المستبد فيها على استمرار استعبادها ، أو تمكين الظالم فيها من ازديادها (لاسمح الله)

زرت بيروت وغيرها من البلاد التي اعدها كلها وحشي الخلاص فكنت على تفضيلي بيروت على سائر اخواتها من المدن بنات سورية أرى ان الوفاق السلبي وحده لايثمر ماتحب من عمران البلاد وارتقائها — واعني بالوفاق السلبي تركما كان من التنازع والتخاصم والتشاتم والتلاحم — وانما تعمر البلاد وتسعد بالوفاق الايجابي وهو انما يكون بالاختلاط وكثرة التزاور والاشتراك في الاعمال المالية ، والجمعيات العلمية والادبية

بذلت لهم نصحي وهم قومي الذين اغربهم اذا صلحوا واصلحوا ، وتصيبني معرتهم اذا اساءوا وافسدوا ، راجيا ان يكون ذلك الوفاق الذي سميته سلبيا مقدمة وطليعة لما يكون بعده من الوفاق الايجابي بالتدريج وانا لا أزال مع سائر العقلاء من اخواننا المبعدين عنهم في مصر والآستانة وامريكا واوربا نتنظر ان يكونوا هم السابقين الى رفع قواعد بيت الاتحاد على اساس الدستور ليكونوا في مقدمة زعماء الارتقاء في

تلك الديار في هذا الطور الجديد وتكون مدنيتهم بنوع مدنية تلك الاوطان في ظل الدولة العلية ايدها الله تعالى

بينا نحن على ذلك الانتظار اذا بجرائد بيروت نفسها تعيد على اسماعنا في هذه الايام شيئا من حوادث ليالي الاستبداد المظلمة: بعضها صريح، وبعضها جمجمة وتلويح وقد جاء العاصمة أناس منها فاذا هم يتشاءمون ويتطيرون ويرون ان بعض علل الخرق السابق أو كلها قد عادت جذعة أو كادت ... فالله الله يا بيروت في نفسك، وفي ابناء جنسك، فان اعداء قومك واعداء دولتك يتربصون بك الدوائر، ويكيدون لك المكايد

اسمعي يا بيروت وعي فاذا سمعت سمعت سورية كلها واذا وعيت وعت، واذا لم تلقي السمع، ولم تفرقي بين الغر والنفع، فعليك إثمك واثم سورية كلها

انك ترين في بعض صحف المفسدين الذين يلبسون لك ثياب الناصحين كلاما في التفرقة بين المسلمين والنصارى فايالك ان تغتري بهم، أو تنخدعي لهم، نعم ان الكريم ينخدع ولكن في الخير، ولا عذر له في الانخداع لدعاة الشر، انهم يقولون لا حق للمسيحي من السوريين ان يتكلم في شئون المسلمين، ونحن مسلمي السوريين وعلماءهم وكتابهم نقول ان لهم ان يتكلموا في شئوننا كلها رأوا الفائدة للبلاد في كلامهم معنا فيها ولا نسيء الظن فيهم، لان المصلحة مشتركة بيننا وبينهم

اني لا أسيء الظن بكم ايها الاخوة الاذكياء الفضلاء، ولا يلدكم وان لم تخل تضيرها من الجهلاء، وانما المحب مولع بسوء الظن في كل أمر يتعلق بمحبوبه، فهذا ما يدعوني الى هذا التنبيه

ان رجائي في عقلاء الطائفتين وفضلائهم لعظيم وان عمازاد هذا الرجاء قوة ورسوخا تأسيسهم لنقابة الصحافة في بيروت وهي ان يشترك معهم جميع اصحاب الصحف الاهلية والمنتظر من هؤلاء الكتاب النبهاء وقد اجتمعت كلمتهم ان يجمعوا كلمة قومهم على الوفاق ويجتثوا شجرة الخلاف الخبيثة من أصولها ويردوا بالاجماع على كل من ينبز بلدهم بلقب التعصب الذميم وان كان من آبائهم او اخوانهم المهاجرين أو المقيمين فاني أرى بعض جرائدنا في امريكا لا تزال تركب متن هذا الخطأ: خطأ

الاتهام بالتعصب الديني وهو هو الذي يثير كوامنه ، ويحرك سواكنه ، ويقوي ضعيفه ، ويحيي ميته ، فما لهم لا يذكرون

اذكروا ايها الاذكياء ما يجمع الآباء وتناسوا ما يفرق ، الى ان تنسوه ببركة التعاون والاخلاص ، اذكروا ان لكم جامعة كبيرة وهي اللسان ، وجامعة أخرى وهي الديار ، وكل منهما جامعة شريفة تقلد ذكرها مجيد في التاريخ ، وجامعة اخرى وهي الغيابة التي تفصل جبلكم بجبل كثير من إخوانكم الشرقيين وما أعز من يكثر إخوانه ويتعدد أعوانه ، « وانما العزة للكاثر » ومن أكبر خطأ بعض الجرائد في المهاجر التغير من هذه الحكومة التي يرجى لكم في ظلها ما لا يرجى لغيركم ان أنتم أقدمتم على تعزيزها بترقية بلادكم وجمع كلمتكم ، ولا حجة لتلك الجرائد الا سوء سيرة رجال الدولة في أدوار الاستبداد البائدة وقياس الآتي على الماضي وهل يقاس الضد على ضده ؟ كلا ان السوريين لم يذوقوا من بأس الاستبداد ما ذاق الارمن ونرى هؤلاء يسارعون اليوم الى اقتطاف ثمار الدستور ويشاركون في الواجبات ليشاركوا في الحقوق . تراهم يعلمون ولدانهم في المدارس النظام العسكري كل يوم ترغيبا لهم في هذه الخدمة الجليلة وما نصارى السوريين دون الارمن ذكاء وعلما بل هم في هذا العنصر العربي ركن عظيم ، تبا لمنكريه باقوالهم ، ومحاولي تقويضه بافسادهم ، فتذكروا وتدبروا ، ولا تنازعوا ولا تدابروا ، واتحدوا وتعاونوا على ترقية البلاد بالعلم والثروة لتكونوا كما يرجو لكم استعدادكم الركن الاعز الاكرم في هذه الدولة ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو اذا شاء يهيئكم لاجتماع الكلمة وكفى